نظرية وحدة الوجود عند فلاسفة المتصوفة
أصولها الأولى وآثارها السوسيولوجية
The Theory of Unity of Being for the Sufi Philosophers
Its early origins and its Sociological effects

عبد الرشيد هميسي
جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي/ الجزائر، *rachid_man@yahoo.fr*

تاريخ الاستلام 2023/04/05 تاريخ القبول 2023/05/27

الملخص

وفدت عقيدة وحدة الوجود إلى الثقافة الإسلامية عن طريق عقائد وفلسفات أجنبية بائدة، كالهندوسية والفلسفة اليونانية . ومؤدى هذه العقيدة :" ما في الوجود إلا اللّه"، أي أن ما نراه من مخلوقات ما هي إلا عين اللّه، واللّه يتجلى كيفما شاء.

وقد تبنى هذه العقيدة فلاسفة المتصوفة، وهؤلاء جاؤوا في مرحلة ما بعد التصوف السني الصحيح، وقد خلطوا التصوف بفلسفات أجنبية وافدة، وكان نتيجة ذلك تبني عقيدة وحدة الوجود.

إن هذه العقيدة تهدم أركان الإسلام فهي تنفي بالضرورة وجود ثنائية خالق ومخلوق، وجنة ونار... وتكاليف شرعية! وتصل منتهاها عندما تقر بأن جميع الديانات صائبة، حتى الذين عبدوا الصنم لم يعبدوا إلا اللّه.

إن خطر هذه العقيدة كبير فهي تهدم العقيدة الإسلامية الصحيحة، وتفسد الشرع، والأخلاق التي أرساها الإسلام، وخطرها على المجتمع كبير ويمس عدة مستويات وأطر، وهذا المقال يحاول حصره وإضاءة بعض جوانبه.

الكلمات المفتاحية: وحدة الوجود؛ المجتمع؛ ابن عربي؛ التصوف؛ العقيدة؛ فلاسفة المتصوفة.

Abstract:

The doctrine of the unity of existence came to the Islamic culture through obsolete foreign beliefs and philosophies, such as Hinduism and Greek philosophy. The meaning of this belief is: "There is nothing in existence but God," meaning that what we see of creatures are nothing but God's eye, and God manifests as He wills.

This belief was adopted by Sufi philosophers, and these came in the post-Sunni correct Sufism stage, and they mixed Sufism with foreign and immigrant

philosophies, and the result of this was the adoption of the doctrine of Unity of Existence.
This belief destroys the pillars of Islam, as it necessarily negates the existence of the duality of Creator and creature, Heaven and Hell... and legal costs. And it reaches its end when it acknowledges that all religions are correct, even those who worshiped idols worshiped only God!
The danger of this belief is great, as it destroys the correct Islamic belief, and corrupts the Sharia, and the morals established by Islam.
Keys Words: Word, Pantheism, the society, Ibn Arabi, mysticism, creed, Sufi philosophers.

مقدّمة:

أخذت نظرية وحدة الوجود الحظ الأوفر من اهتمام وكتابات التصوف الفلسفي وخاصة مع ابن عربي الذي أخذ في توسيعها وفي بثّها كتاباته حتى اكتملت عنده، حيث أن من أتى بعده ما هو إلا شارح لها أو مُكرّر.

أقل شيء يُقال عن هذه النظرية – بعد اطلاعي على تفاصيلها – إنها خطيرة، وذلك لأنها تتصادم مع نصوص صريحة في القرآن والسُّنة، وأيضا لأن لها آثارا خطيرة على العقيدة الإسلامية بشقيها (الألوهية والربوبية)، ثم على الممارسات الشرعية التي تنجرّ عنها، ومن ثَم على أخلاق المجتمع المسلم، لأنها في الحقيقة تهدم كل ما بناه الإسلام من شرع وأخلاق.

إشكالية البحث ومنهج التحليل:

تتأسس إشكالية هذا البحث على فهم الأصل والطريقة والمنفذ الذي تسربت منه عقيدة/نظرية وحدة الوجود إلى الثقافة الإسلامية، وكيف تمكنت من الدخول إلى ثقافة أسست نفسها على احترام أحكام القرآن والسنة المتوارثة عبر الأجيال، وكيف تستطيع الفكرة الدخيلة المرور عبر الحواجز المتينة والمنيعة لتنبت في ثقافة عمرها آنذاك أكثر من 500 سنة!

ثم ما الأثر الذي تتركه في المجتمع هذه الثقافات الدخيلة التي لا تستجيب إلى المعلوم من الدين بالضرورة بل تحاول هدمه وتأسيس ما يضاده، والتي تقفز على كل الأصول الثابتة والمتوارثة عبر الأجيال؟

للإجابة على هذه الإشكالية اعتمدنا المنهج الاستقرائي الذي يقوم على تتبع الجزئيات للوصول إلى أحكام عامة، وملاحظة الأحكام الجزئية لوضع أحكام الكل.

كما اعتمدنا المنهج التاريخي الذي ساعدنا في تتبع فكرة وحدة الوجود ونموها وانتقالها عبر التاريخ والثقافات، فقد رصدناها عند الإغريق وفي الثقافة الهندية ثم في الثقافة العربية الإسلامية.

كما دعمنا بحثنا بالمنهج الوصفي التحليلي الذي مكننا من وصف ماهية وحدة الوجود وماهية الحلول، والاتحاد، ووحدة الشهود ، وتحليل كبرى المقولات المتعلقة بمفهومها وأصولها وأثرها السوسيولوجي .

أهداف البحث:

يحاول هذا البحث الوصول إلى:

1- معرفة الأصول الأولى التي استقت منها عقيدة وحدة الوجود بنيتها ومادتها، وهل هي أصيلة أم دخيلة.
2- فهم معنى وحدة الوجود فهما دقيقا ، والتفريق بينها وبين وحدة الشهود والحلول.
3- فهم تجلياتها عند كبار فلاسفة المتصوفة كابن عربي وابن سبعين والجيلي ...
4- استيعاب خطر عقيدة وحدة الوجود على الأخلاق وعلى المستوى السوسيولوجي، وتبيين أثرها السلبي.

خطة البحث:

ابتدأناه بمقدمة: افتتحنا البحث بها، و وضحنا فيها إشكاليته وأهدافه المرجوة.

ثم بعرض: واحتوى ثلاثة أقسام:

أ/ القسم المعجمي: طرقنا فيه تعريف وحدة الوجود لغة واصطلاحا.

ب/ القسم التاريخي: طرقنا فيه أصول عقيدة وحدة الوجود ومنابتها الأولى، تتبعناها في الثقافات الأجنبية الوافدة كالثقافة اليونانية والهندية، ثم إلى مفهومها في الثقافة الإسلامية عند فلاسفة الصوفية.

ج/ قسم الآثار المترتبة عنها: وقسمنا هذا إلى مستويين؛ مستوى العقيدة ومستوى الأخلاق والسوسيولوجيا.

أنهيناه بخاتمة: ذكرنا فيها أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

1/ مفهوم وحدة الوجود:

في المعاجم العربية تكون الواو والحاء والدال أصل واحد يدل على الانفراد[1] ووحَّد الشيء جعله واحدا ، والواحد: المنفرد بذاته في عدم المِثل والنظير[2] . والوجود هو الثبوت والحصول، مصدر من وُجد الشيء، ويطلق الوجود على الظفر بالضالة وإدراك المطلوب، ويطلق أيضا على الوصف الذي تشترك فيه الكائنات فيميزها عن المعدومات[3]. وقال ابن منظور: "وُجد الشيء من العدم فهو موجود"[4].

قبل التطرق للجانب الاصطلاحي لابد من الإشارة إلى أن مفهوم وحدة الوجود مُحدث حيث لم يكن موجودا مع المتصوفة الأُوَل أي في التصوف السني، وإنما نبت مع التصوف الفلسفي كالذي عند ابن عربي ، وابن سبعين والجيلي...

أما اصطلاحا فإن المتصوفة الفلاسفة يرون أن كل شيء هو اللّه، أو أن اللّه هو كل شيء، بمعنى أن العالم هو اللّه ، واللّه هو العالم. وهذا القول يمكن أن يُفهم بمعنيين:

- الأول : أن اللّه وحده هو الحقيقي، وما العالم إلا مجموع من التجليات أو الصدورات التي ليس لها أية حقيقة ثابتة، ولا جوهر متميز، وهذا مذهب سبينوزا.
- الثاني: أن العالم وحده هو الحقيقي، وما اللّه إلا مجموع كل ما هو موجود. وهو مذهب وحدة الوجود المادية.[5]

والحق أن الوجود مقسم عقليا إلى وجود واجب ووجود ممكن، ولكن هذه النظرية تنكر هذا التقسيم العقلي وتبطله؛ فالوجود عندهم واحد. يقول النابلسي في ديوانه:

ليس الوجود كما يقال اثنان حق وخلق، إذ هما شيئان

هذا المقال عليه قبح عقيدة عند المحقق ظاهر البطلان[6]

وما عليه أهل العلم والسنة أن الوجود الواجب هو اللّه وحده، أما الوجود الممكن فهي مخلوقاته جميعا، ومحال أن يكون اللّه ومخلوقاته شيئا واحدا.

2/ أصولها :

يقول عبد القاهر البغدادي في كتابه (الفَرف بين الفِرق) أن جذور هذه النظرية (الحلول والاتحاد) يعود إلى الأديان الوثنية والفلسفات القديمة، كما تعود أيضا إلى الديانة المسيحية المحرّفة ، إذْ زعمت أن اللّه حلَّ في سيدنا عيسى عليه السَّلام، كما أنها ظهرت أيضا عند بعض فرق الشيعة الأوائل الذين زعموا حلول اللّه تعالى في علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه وفي بعض ذريته [7].

وسنعرض الآن أهم أصولها الأولى التي انبثقت منها:

2-أ- الهندوسية:

من أهم كتب الهندوس كتاب (الفيدانتا)، في هذا الكتاب عبارات كثيرة تصرح بوحدة الوجود مثل:" هذا الكون كله ليس إلا ظهورا للوجود الحقيقي الأساسي، وإن الشمس والقمر، وجميع جهات العالم، وجميع أرواح الموجودات أجزاء لذلك الوجود المحيط المطلق ، إن الحياة كلها أشكال لتلك القوة الوحيدة الأصلية، وإن الجبال والبحار والأنهار تفجر من ذلك الروح المحيط الذي يستقر في سائر الأشياء"[8].

وعبروا عن ذلك بالملح الذائب في الماء، فهو موجود مع أننا لا نشاهده بأبصارنا، وكذلك بزعمهم الإله سارٍ في الكون مع أننا لا نشاهده.[9] ودين الهندوسية يقول أن غاية الغايات عند الهندوسي في

حياته ليس في تقديم الخير لنفسه ومجتمعه، ولا أن يحيا حياة خالية من الآلام والبلايا، ولكن غاية الغايات أن يستشعر وحدة الوجود، ويندمج في المطلق، ويفنى في الإله[10].

إذن نرى أن غاية الدين الهندوسي هو وصول المتدين إلى استشعار وحدة الوجود والاندماج فيها والعيش بمقتضاها، وليست الغاية توحيد اللّه وعبادته كما يراها الدين الإسلامي. لقد استولت فكرة وحدة الوجود على الدين الهندوسي حتى طغت عليه وحرفت غايته الكبرى.

2-ب- في الفلسفة اليونانية:

يرى انكسيمانس أن المادة الأولى لهذا العالم هي الهواء المنتشر في جميع أنحاء الوجود، وأن الموجودات تحدث فيه بالتكاثف والتخلخل، فالتخلخل ينتج النار، والتكاثف ينتج التراب[11]. أما هرقليطس فقد خالفه فاعتقد أن النار هي المبدأ الأول الذي تصدر عنه الأشياء، وترجع إليه، وليست هي النار التي ندركها بحواسنا بل هي نار لطيفة للغاية ، إنها نار أثيرية حية عاقلة، تتصف بأنها أزلية وأبدية، هذه النار هي حياة العالم، والعقل الكلي فيه، وهي الإله[12].

أما برمنيدس رأى أن الشيء الوحيد هو الوجود، أما ما عداه فهو عدم، والعدم لا يمكن أن يُفهم، ولا يمكن التحدث عنه، ثم أضاف إلى الوجود صفات يفهم منها أنه كان يقول بألوهيته، فهو واحد [أي الوجود] قديم، ثابت كامل، وهذه الصفات لازمة من معنى الوجود، كما قرر أنه لا وجود إلا للكل ، والكل واحد[13]. أي أن كل المتعينات والموجودات ما هي إلا شيء واحد وهو الإله.

ولطاليس رأي مخالف لما ذكرنا من آراء فقد قال بأنّ " أصل الكون واحد وهو الماء إذْ رأى أن الكائنات الحية تتغذى من الأشياء الرطبة، وأنّ النبات يتغذى من الماء وأن حيوان البحر أكثر من حيوان البرّ، وأن المطر أساس الحياة والبقاء"[14] والحقيقة أن هذا الاستدلال سطحي مبتور، لأن الماء مخلوق أصلا، وهو استدلال لا يُوصِل إلى حقيقة المُوجِد. ثم إن الطبيعة ترفض ذلك، فإن كان أصل الحياة هي الماء فكيف تولد النار من الماء؟

والذي يدّعم هذا القول الأسطورة السُّومرية القديمة التي ذكرها فراس السّوّاح في كتابه (مغامرة العقل الأولى) واسمها "الميلاد المائي"، فحين كان كل شيء مظلما، ولا شيء غير المياه ففي البدء كانت الآلهة (نمو) ولا أحد معها، وهي المياه الأولى التي انبثقت منها كلّ العناصر، وأنجبت (نمو) ولداً وهو (آن) وهو إله السماء و(كي) وهي الأنثى إلهة الأرض وكان الثلاثة متوحدين، ثم تزوج (آن)(كي) فأنجبا (أنليل) إله الهواء. وكان في مساحة ضيقة ففصل بالقوة أمه عن أبيه، وأنجب (أنليل) ابنا وهو (نانا) إله القمر، ولكن ضوءه كان خافتاً ، وأنجب (نانا) ابنا وهو (أوتو) وهو إله الشمس، وبدأت الآلهة في خلق الأشياء الأخرى. [15]

وهذا التفسير الخرافي أقل شأنا من أن يُنقد ويُردّ عليه لأن أبسط القوانين العلمية الحديثة لا تقبله، فما ضوء القمر إلا انعكاس لضوء الشمس وليس العكس.

يرى أفلوطين أن الوجود الحقيقي إنما هو للرب ، أما الكون فهو ظل له. وأن هذا الكون وجد بفيض من الرب فيضا اضطراريا كما يصدر الشعاع من الشمس، وأن ما عدا الرب فهو عرض لا جوهر[16]. وهو رأي أرقى من سابقه إلا أنه لا يخرج من دائرة وحدة الوجود أي أنه يعاني المأزق الفكري نفسه. وسينبثق عن رأي أفلوطين آراء المتصوفة الفلاسفة فهو أقربهم إليهم.

إذن اختلف الفلاسفة اليونانيون في أصل الوجود فمنهم من رده إلى الهواء، ومنهم من رده إلى النار، ومنهم من رده إلى الماء، وكل هذه الأراء متأثرة بالطبيعة فهم يرونها خالقا. وأنضج هذه الآراء هو رأي أفلوطين لكن رأيه ناقص، حيث وصف الرب بأنه يخلق ضرورة لا اختيارا وعبّر عن هذا المعنى بلفظة [فيض] .

3 – عند فلاسفة المتصوفة:

أشهر الذين قالوا بوحدة الوجود هم من فلاسفة المتصوفة كاِبن عربي وابن سبعين والجيلي وغيرهم. لذلك لم يُنقل هذا القول عن المتصوفة الأوائل، كالجنيد، والمحاسبي والسَّقطي وغيرهم. وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدلّ على تأثر هؤلاء المتصوفة الفلاسفة بالفلسفة اليونانية أو غيرها. وأن هذا الكلام الذي قالوا به جديد ودخيل على العقيدة الإسلامية الصّافية.

وملخصّ مفهوم وحدة الوجود هو : أن اللّه تعالى والعالم شيء واحد . وسنرى هذا الملخص مبثوثاً ومشروحاً في أقوالهم.

- يقول ابن عربي: "فهو[اللّه] من حيث الوجود عين الموجودات "[17].

وهذا إقرار صريح وبرهان ساطع على أنه يقول بوحدة الوجود. ولو قال مثلا (هو والموجودات شيء واحد) لاحتمل كلامه التأويل كأن نؤوله: أنه خالق الموجودات إذن فهي منه. ولكنه قال (عين الموجودات)، أي هو هي.

- يقول ابن سبعين: "العامَّة والجُهّال غلب عليهم الكثرة والتعدد، والخاصة والعلماء غلب عليهم الأصل، وهو وحدة الوجود "[18].

- أمّا النابلسي فيقول : "ما ثَمَّ إلاّ ذاتٌ وصفات وصفات صفات وهي الأفعال، ومنفعلات، وهي العالم، فالأول: المعبود، والثاني الموصل إليه، والثالث العابد، والرّابع المانع، فالأول مرتبة اللّه، والثاني مرتبة محمد صلى اللّه عليه وسلم، والثالث مرتبة المؤمنين، والرّابع مرتبة الشيطان، وهذه الأربع في الحقيقة شيء واحد.... وهو صورة الحق ".[19] حيث جمع اللّه والشيطان في شيء واحد؟!

- والجيلي يقول: "أنّ اللّه ما يتجلى إلاّ على نفسه، ولكن تسمى تلك اللطيفة الإلهية عبداً بإعتبار أنها عوض عن العبد، وإلاّ فلا عبدٌ ولا ربٌ، إذْ بإنتفاء اسم المربوب انتفى اسم الرّب، فما ثم إلاّ اللّه وحده "[20]. وفي موضع آخر يقول:" واعلم أن كل شيء من المعاني، والإلهيات، والأشكال، والصور ، والأقوال، والأعمال، والمعدن والنبات، وغير ذلك مما يطلق عليه اسم الوجود، فإنه له حياة في نفسه لنفسه، حياة تامة ... وتلك الحياة القديمة الإلهية، فافهم ما أشرت لك."[21]

- ويقول القاشاني في شرحه لفصوص الحكم: "كل خلقٍ تراه العيون فهو عين الحق، ولكن الخيال المحجوب سماه خلقاً لكونه مستوراً بصورة خلقية "[22]

والملاحظ من خلال رصفنا لأقوال كبار الصّوفية الفلاسفة أن وحدة الوجود عقيدة راسخة في أذهانهم مستقرة مجملها أن اللّه والعالم شيء واحد، ولا شيء غير اللّه.

كثيراً ما تختلط وحدة الوجود بمصطلحات قريبة منها وهي: الحلول، والاتحاد، ووحدة الشهود. ولا بد من رفع اللُّبس وتوضيح الحدود:

أمّا الحلول في اللغة فمصدره حلّ يحلّ إذا نزل بالمكان ومنه قوله تعالى: ﴿أو تحلّ قريباً من دارهم﴾ [الرعد31] وأصل الحلول من حلّ عقد الحبال عند إنزال الأحمال أي فتحها ونقضها.[23]

أمّا الاتحاد في اللغة، أن يصير المتعدد واحداً،...يقال اِتحد الشيئان أو الأشياء أي صارت شيئاً واحداً، ومادة (وحد) تدل على الانفراد، والواحد المنفرد بذاته في عدم المِثْل والنظير.[24]

ومن خلال فهمنا لمصطلح الحلول والاتحاد يقتضي أن نقررّ أن الواجد والموجود شيئان متغايران منفصلان وساعة الحلول أو الاتحاد يحدث التجاذب بين الشيئين ويقع الاتحاد، أو يُتوهَّم أن اِتحاداً وقع.

وهذا الذي قرره الجرجاني في كتابه (التعريفات) إذ قال: "شهود الوجود الحق الواحد المطلق الذي الكلّ موجود بالحق فيتحد به الكلّ من حيث كون كل شيء موجوداً به معدوماً بنفسه لا من حيث أن له وجوداً خاصًّا اِتحد به فإنه مُحال "[25].

والصّوفية الذين يقولون بوحدة الوجود ينفون الحلول والاتحاد حتماً، لأنه يثبت وجود طرف سينحل أو سيتحد باللّه أي أن هناك من هو (غير اللّه)، وتبطل بهذا فكرة وحدة الوجود.

وقول ابن عجيبة شاهد على ذلك : "لا يثبت الحادث مع من له وصف القدم، فاِنتفى القول بالاتحاد، إذْ معنى الاتحاد هو اقتران القديم مع الحديث، فيتحدان حتى يكونا شيئاً واحداً، وهو محال، إذْ هو مبني على وجود السِّوى، ولا سوى "[26].

أمَّا وحدة الشهود فقد عرفها وفصل ما يقع فيها الإمام ابن تيمية – رحمه اللّه – فهو القائل: "الفناء عن الشهود السِّوى يحصل لكثير من السالكين لفرط انجذاب قلوبهم إلى ذكر اللّه وعبادته ومحبته ، وضعف قلوبهم أن تشهد غير ما تعبد، وترى غير ما تقصد، لا يخطر ببالهم غير اللّه ... فإذا قوي على صاحب الفناء هذا فإنه يغيب بموجوده عن وجوده، وبمشهوده عن شهوده، وبمذكوره عن

ذكره، وبمعروفه عن معرفته، حتى يفنى من لم يكن وهي المخلوقات المعبّدة ممن سواه ويبقى من لم يزل وهو الرّبّ تعالى ، والمراد فناؤها في شهود العبد وذكره، وفناؤه عن أن يدركها أو يشهدها "[27].
هكذا يرى الإمام ابن تيمية مسألة وحدة الشهود على أنها مسألة قلبية ذهنية فهي تبدأ من السالك وتنتهي عنده، فهو الذي يغيب عن الموجودات .

4 – آثارها العقدية والسوسيولوجية:

يترتب على من اِعتقد بوحدة الوجود جملة من اللّزومات العقدية والشرعية والسوسيولوجية وغيرها.

4-أ- على مستوى العقيدة :

أمّا على مستوى العقيدة، فيلزهم القول بأن اللّه لم يخلق الأشياء على وجه الحقيقة ، فمحالٌ أن يخلق الشيء نفسه. قال القاشاني:" كل خلق تراه العيون فهو عين الحق، ولكن الخيال المحجوب سماه خلقا لكونه مستورا بصورة خَلقية"[28].ويقول في موضع آخر مؤكدا هذا المعنى:" معنى أوجده اللّه : ظهر بصورته"[29]. قال النابلسي موافقا هذا الرأي:" لا يصح أن يكون الوجود مخلوقا"[30] . يقول ابن عربي بهذا الصدد[31]:

فالحق خلق بهذا الوجه فاعتبروا وليس خلقا بهذا الوجه فادّكروا
من يدر ما قلت لم تخذل بصيرته وليس يدريه إلا من له بصر
جمعٌ وفرقٌ فإن العين واحدة وهي الكثيرة لا تبقي ولا تذر

وقد وضح الإمام بن تيمية حقيقة قول الاتحاديين ورد عليه في قوله: " حقيقة قولهم : إن اللّه لم يخلق شيئا، ولا أبدعه ولا برأه ، ولا صوره ، لأنه لم يكن وجود إلا وجوده فمن الممتنع أن يكون خالقا لوجود نفسه أو بارئا لذاته" [32].

ومن الآثار المترتبة على عقيدة وحدة الوجود الاعتقاد بوحدة الأديان وصحَّة عبادة كلّ معبود، قال ابن عربي في هذا الشأن :"والعارف المكمَّل من رأى كل معبود مجْلى لحق يعبد فيه"[33].

ويقول أيضا في موضع آخر:" إن للحق في كل معبود وجها، يعرفه من عرفه، ويجهله من جهله" [34]. وهذا في الحقيقة قول يساوي فيه بين الدين الإسلامي وغيره من الديانات بل إنه يساويه بعبادة الوثن التي جاء الإسلام لمحاربتها وإبطالها، وهو قول مخالف لصريح القرآن : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة 03]. وهل كان سيدنا موسى عليه السلام مخطئا لما نهى قومه عن أن

يعبدوا الأصنام : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف 138].

ونجد الجيلي يلوي أعناق الآيات ويطوعها لنظرية وحدة الوجود، فقد قال: "... ثم الجملة بقوله ﴿لا إله إلا أنا﴾ يعني الإلهية المعبودة ليست إلا أنا ، فأنا الظاهر في تلك الأوثان، والأفلاك والطبائع، وفي كل ما يعبده أهل كل ملة ونحلة، فما تلك الآلهة كلها إلا أنا، ولهذا أثبت لهم لفظ الآلهة ... وهذه التسمية تسمية حقيقية، لأن الحق سبحانه وتعالى عين الأشياء". [35] وهنا نسأل الجيلي : فيمَ كان رسول اللّه عليه وسلم يحارب الكفار والمشركين؟ ألم يصف اللّه عز وجل المشركين بالضلال في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (23) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلا ضَلالا﴾ [نوح23,24].

ووفق هذا المضمار يقول علي وفا: "لم يطلب كل طالب إلا الحق، ولكن تارة يظفر به حقا، فيعبده عن مكاشفة، وتارة يظفر به وهما، فيعبده على حجاب، فما عبد عابد في الحقيقة إلا اللّه" [36].
وردا على مثل هذه الأقوال نقول: ولِمَ شرع اللّه الشرائع وأرسل الرُّسل للناس ؟ كان الأولى تركهم يعبدون ما شاؤوا فلم يعبدوا إلا اللّه حسب زعمه. مثل هذه الآراء تُشعرك أن الرسالة والنبوة والكتب السماوية والشرائع ما هي إلا لعبة زائدة ترفيهية لا هدف لها. إن خطر هذه الآراء يكمن في تمييع الدين وتفريغه من حدوده، ومن ثم يكون اندثاره. ولقد قال اللّه عز وجل ﴿إن الدين عند اللّه الإسلام﴾ [آل عمران 19] أي أن غيره من الديانات باطل لأنها لا تدعو إلى توحيد اللّه عز وجل.

وقد اختلط وتساوى عندهم الشرك والتوحيد، فقد قال الجيلي :"الحق سبحانه وتعالى في كل شيء.... الشريك هو الحق، والمشرك هو الحق، والشركة هي الحق فإن شئت أشرك، وإن شئت أفرد، فما ثمَّ إلاّ عينُك "[37].

ومن أثر وشؤم هذه النظرية أنها وصفت اللّه عز وجل بجميع الصّفات سنِيِّها ودنيِّها؛ يقول ابن عربي: "ألا ترى الحق يظهر بصفات المحدثات وأخبر بذلك عن نفسه، وبصفات النقص وبصفات الذمّ "[38]. وهذا لازم قولهم بوحدة الوجود، فالأشياء المذمومة والقبيحة هي الإله! حاشاه! لكن اللّه خلق القبح لحكمة وهو ليس بقبيح.

ومن آثارها السلبية الغلو في تقديس النبوة ،فهم يخلعون على الأنبياء صفات الآلهة، وخاصة النبي صلى اللّه عليه وسلم. يقول محمد بن المعطي الكتافي :"صلاح الملك وانتظامه، بل وجوده من أصله متوقف عليه صلى اللّه عليه وسلم ضرورة ، لأنه البرزخ بين صدمات الذات وبين ما يظهر من صور الممكنات ولولا البرزخ ما كان وقع على الموجودات أبصار"[39]

كما يلزم الذين قالوا بوحدة الوجود القول بأن أجزاءً من اللّه تفنى، وأن اللّه متحيز؛ لأن اللّه عندهم هو عين الموجودات [المواد] ، ونعلم أن طبيعة المادة تفنى، فنتيجة ذلك أن اللّه تفنى بعض أجزائه حاشاه!

أمّا ابن عربي فلم ينته به المقام على هذا فحسب، بل ذهب يفسِّر القرآن وفق نظرية وحدة الوجود، فراح يلوي أعناق النصوص، ويخضعها لنظريته، فخرج من ذلك بعجيب الأقوال والتفاسير، بعضها يناقض بعضها الآخر. فقال مفسِّراً قوله تعالى ﴿ولا تذرنّ آلهتكم، ولا تذرنّ ودًّا ولا سواعا ولا يغوث ولا يعوق ونسرا ﴾: "فإنهم إذا تركوهم [يقصد الأصنام ودّا، وسواعا ويغوثا ويعوقا ونسرا] جهلوا من الحق على قدر ما ترك هؤلاء. فإن للحق في كلّ معبود وجهاً يعرفه من يعرفه، ويجهله من يجهله. في المحمديين ﴿وقضى ربّك ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه ﴾ أي حكم، والعالم يعلم من عُبِدَ، وفي أيّ صورة ظهر حتى عُبِد، وأن التفريق والكثرة كالأعضاء في الصّورة المحسوسة وكالقوى المعنويّة في الصّورة الروحانية، فما عُبِد غير اللّه في كل معبود"[40]

أي أنّ الذين أشركوا وعبدوا الأصنام (ودّ، وسواع...) ما أشكروا بل كانوا يعبدون اللّه على الوجه الذي اختاروه . وكأن ابن عربي لم يُكمل قراءة الآية ﴿... وقد أضلوا كثيراً، ولا تزد الضالمين إلاّ ضلالا﴾(نوح 23).

وقد خص فرعون بالحديث إذ ذكرما فعله مع السحرة، وبرّر فعله على أنه هو اللّه وفعله صحيح :"ولما كان فرعون في منصب التحكم صاحب الوقت، وأنه الخليفة بالسيف-وإن جار في العرف الناموسي- فأنا الأعلى منهم بما أُعطيتُه في الظاهر من التحكم فيكم، ولمّا علمت السحرة، صدقه في مقاله لم ينكروه، وأقروا له بذلك. فقالوا له : إنما تقضي هذه الحياة الدنيا، وأقروا له بذلك . فاَقض ما أنت قاض، فالدّولة لك، فصحَّ قوله: "أنا ربكم الأعلى" وإن كان عين الحق فالصورة لفرعون. فقطع الأيدي والأرجل وصلب بعين حق في صورة باطل لنيل مراتب لا تنال إلاّ بذلك الفعل ، فإن الأسباب لا سبيل إلى تعطيلها لأن الأعيان الثابتة اقتضتها "[41].

وهذا القول عظيم. فكيف يكلِّف اللّه موسى عليه السَّلام بهداية فرعون (موسى عليه السلام) أن يهديه!؟

ولماذا يُغْرق اللّه فرعون وأتباعه إن كان هو عين الحق كما يدّعى ابن عربي؟! مثل هذا الرأي لا يقبله السّفهاء بَلَهَ العقلاء.

وسأنقل له أقوالاً أخرى مكتفياً بالنقل دون التعليق: "فإن عبادة العجل فرقت بينهم (سيدنا موسى وسيدنا هارون عليهما السّلام)فكان منهم من عبده اتباعاً للسَّامري وتقليداً له، ومنهم من توقف عن عبادته حتى يرجع موسى إليهم فيسألونه في ذلك، فخشي هارون أن ينسب ذلك الفرقان بينهم إليه،

فكان موسى أعلم بالأمر من هارون لأنه علم ما عبده أصحاب العجل، لعلمه بأن اللّه قد قضى ألاّ يُعبد إلاّ إيّاه، وما حكم اللّه بشيء، بل يراه عين كل شيء "[42] .

4-ب- الأضرار السوسيولوجية:

عقيدة وحدة الوجود تفسد الأخلاق لأن الإنسان إن ظن أنه هو عين اللّه فكيف يحاسب اللّه نفسه ويعاقبها ! واللّه لا يُحاسب. وانطلاقا من هذه العقيدة يبيح الإنسان لنفسه أن يفعل ما شاء وقتما شاء وكيفما شاء. فينحدر من مرتبة الإنسان إلى درك الحيوان.

فالأخلاق تبنى على أصلين الخوف والحب. فإذا زال الخوف من اللّه لأن الإنسان هو اللّه - حسب زعم وحدة الوجود- فهل يخاف الفرد من نفسه ! وأيضا إذا زال الحب فإن الأخلاق لا تبنى على شيء . ويتساوى عند هذه النقطة عقيدة وحدة الوجود بالإلحاد فكلاهما لا أخلاق له، فالإلحاد ينفي وجود اللّه أما وحدة الوجود فتنقل الألوهية إلى الإنسان، أي أن النتيجة والمؤدى واحد ، لا أخلاق لهما.

وبما أن مؤدى نظرية وحدة الوجود والإلحاد واحد فإن من آثارهما السوسيولوجية والسيكولوجية من آثار الأنانية وحب الذات المبالغ فيه، إذ كانت النتيجة الحتمية للقلق النفسي والخوف من الأيام هي اتجاه الإنسان نحو الفردية والأنانية.

ومن آثارهما فقد الوازع والنزوع إلى الإجرام، أو التخفف من وقع الجريمة على النفس واستسهالها لأنهما لا يربيان الضمير، ولا يخوفان الإنسان من إله قوي قادر يراقب تصرفاته وأعماله في هذه الأرض فإن الإنسان المؤمن بوحدة الوجود حقا ينشأ غليظ القلب عديم الإحساس قد فقد الوازع الذي يردعه عن الظلم ويأمره بالإحسان والرحمة.

ومن آثارهما هدم النظام الأسري لأن لهما آثاراً مدمرة في الحياة الاجتماعية للإنسان، فالبعد عن اللّه سبحانه وتعالى لم يكن من آثار تدميره النفسية البشرية فقط، وإنما كان من لوازم ذلك تدمير المجتمع الإنسان وتفكيكه، وذلك أن نظام الاجتماع البشري لا يكون صالحاً سليماً إلا إذا كانت اللبنات التي تشكل هذا النظام صالحة سليمة، وإذا فسدت هذه اللبنات فسد تبعاً لذلك النظام الاجتماعي بأسره[43].

إن نظرية وحدة الوجود في صميمها تنصلٌ من المسؤولية تجاه الحياة والمبادئ والقوانين وكل ما من شأنه أن يشكل عبءً على النفس ، وإن كان هذا العبء مؤداه صلاح حال البشر ونظام عيشهم ، لذلك فإن الفرد الذي يؤمن بوحدة الوجود يشكل نشازا وعبءً على نظام المجتمع، وذلك بتمرده على قوانينه لأنه هو الإنسان الإله وهو فوق القوانين والنُظُم.

ومن هذا المنظور أيضا لن يكون هناك حلال أو حرام فلا معنى لوجودهما، فلا حلال ولا حرام على الإنسان الإله حسب عقيدة وحدة الوجود، ولماذا أوجد اللّه الحلال والحرام إلا لردع الإنسان عن المحرمات والترغيب في المباحات، وإن كان ذلك الإنسان هو اللّه فكيف يرغب اللّه ذاته في الحلال، وينفرها من الحرام فهو خالقهما ! من هذا المنطلق تسقط كل التكاليف الشرعية والحدود لأن الإله لا يعاقب نفسه ولا يكافئها ولا يدخلها النار أو الجنة، ونتيجة ذلك أن النصوص الشرعية في الكتاب والسنة وكذلك الأحكام الشرعية المستنبطة منهما لا طائل منها، ووجب تركها. لذلك كله يفتح المؤمن بوحدة الوجود الباب على مصراعيه لغريزته وشهوته فيتحول إلى حيوان .

خاتمة:

أخلص في الأخير إلى أن نظرية وحدة الوجود نظرية تتعارض مع صريح القرآن والحكمة الكونية، فكيف أن اللّه يخلق ذاته ويبتليها، ويحاسبها ومن ثمَّ يدخلها الجنة أو النار. فالخالق سبحانه وتعالى أحكم من أن يفعل ذلك.

وأيضاً هذه النظرية أرادت أن تطوّع ما جاء في الفلسفة اليونانية من القول بوحدة الوجود إلى العقيدة الإسلامية، التي ترفض هذه الفكرة لأنها تقوم على ثنائية خالق ومخلوق. فالمتصوفة الفلاسفة لم يوفقوا في عرض هذه النظرية على الكتاب والسنة والأصول الإسلامية الصحيحة، ومعرفة زيفها وخطرها.

وهذه العقيدة هي خطر عظيم على الإسلام لأنها تنسف بطريقة غير مباشرة القرآن وأحكامه والسنة وضوابطها، حيث إنها تمحو معالم الدين الإسلامي الذي جاء يدعو إلى توحيد اللّه عز وجل وعبادته كما أمر اللّه عز وجل.

تلتقي هذه العقيدة في مؤداها وآثارها مع فلسفة الإلحاد ؛ في حين أن الإلحاد نفى أن يكون لهذا العالم مُوجدا أي خالقا سيحاسب الناس على أخلاقهم وأفعالهم يوما ما ، زعمت عقيدة وحدة الوجود أن الإنسان هو الإله، أي نقلت إليه الألوهية، فهو الموجود ولا موجود سواه. ومؤدى هذين الزعمين أن الإنسان له كامل الحرية في الفعل والسلوك ، فالإلحاد يقول له : افعل فلا رقيب عليك. ووحدة الوجود تقول له : افعل فأنت الرقيب عينه. لذلك ينجر على هذا الاعتقاد الكثير من الانحرافات والتشوهات السوسيولوجية كتفاقم الجريمة، وتفكك الأسرة، والانغماس في اللذة لدرجة بوهيمية.

الهوامش وقائمة المراجع :

[1]بن فارس أحمد(1399هـ) ، مقاييس اللغة ، ج6،بيروت، دار الفكر، ص 90.

[2] الفيروز أبادي محمد (2013)، القاموس المحيط،ج1 ، القاهرة مصر، دار الحديث، ص334.

[3] المصدر نفسه، ج1 ص343.

[4] ابن منظور محمد(1410هـ) ، لسان العرب، ج3، بيروت لبنان ، دار صادر،ص446.

[5] ينظر: سالم عبد البديع (دت)، " فلسفة التصوف بين وحدة الوجود ووحدة الشهود". مصر ، مجلة كلية الآداب،ع36، جامعة الزقازيق، ، ص118.

[6] النابلسي عبد الغني(1270هـ)، ديوان الحقائق، ج2 ، القاهرة مصر، دار الطباعة الباهرة،ص170.

[7] ينظر: البغدادي عبد القاهر (دت) – الفرق بين الفرق – تح: محمد محي الدين . عبد الحميد ، بيروت ، دار المعرفة. ص254.

[8] شلبي أحمد (1984)، أديان الهند الكبرى، مصر، مكتبة النهضة المصرية،ص 72.

[9] ينظر: زيعور علي (1993)، الفلسفة في الهند، بيروت، مؤسسة عز الدين ، ص132.

[10] ينظر المرجع نفسه، ص162

[11] بدوي عبد الرحمان (1996)، موسوعة الفلسفة ج1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص 279.

[12] المرجع نفسه ج2 ص 533.

[13] كرم يوسف (دت)، تاريخ الفلسفة اليونانية، سورية، لجنة التأليف والطبع والنشر ص28.

[14] ينظر: بدوي عبد الرحمان(1996)،موسوعة الفلسفة- ج1 ،بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر. ص276.

[15] ينظر :السّواح فراس (2002)، – مغامرة العقل الأولى – دراسة في الأسطورة ط13، دمشق، دار علاء الدين، ص33.

[16] بدوي عبد الرحمان (1996) موسوعة الفلسفة ، ج1 ص201.

[17] ابن عربي محمد (دت)، فصوص الحكم- تح: أبو العلا عفيفي، بيروت، دار الكتاب العربي، ص77.

[18] بن سبعين عبد الحق(د ت)–رسائل ابن سبعين- تح: عبد الرحمان بدوي. مصر، الدار المصرية ، ص189.

[19] النابلسي عبد الغني(1405هـ)، الفتح الرَّباني –،تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت ط1 ص 81,82.

[20] الجيلي عبد الكريم (دت)، الإنسان الكامل ،ج1، مصر، مطبعة محمد علي صبح وأولاده.ص62.

[21] المرجع نفسه ، ج1 ص73.

[22] القاشاني عبد الرزاق (دت)،شرح فصوص الحكم ، بيروت، مكتبة مصطفى الباني .

[23] ينظر: الفيروز أبادي محمد – القاموس المحيط. ج3. ص359.

[24] المصدر نفسه ج1 ص343.

[25] الجرجاني عبد العزيز(1985) ، التعريفات ، بيروت، مكتبة لبنان، ص 60.

[26] ابن عجيبة أحمد(دت)، إيقاظ الهمم. بيروت دار المعارف:. ص58.

[27] ابن تيمية أحمد – مجموع فتاوى ابن تيمية ج10. مكة. السعودية، الرئاسة العامة لشؤون الحرمين، ص215.

[28] القاشاني عبد الرزاق(دت)، شرح فصوص الحكم، ص 152

[29] المرجع نفسه: 163,164

[30] النابلسي عبد الغني، الوجود الحق، ص 29.

[31] ابن عربي محمد ، فصوص الحكم، شرح القاشاني ص 84.

[32] ابن تيمية أحمد (دت)، حقيقة مذهب الاتحاديين، ص 77.

[33] ابن عربي محمد(دت) – فصوص الحكم. تح: القاشاني- ص300.

[34] المرجع نفسه ص67.

[35] الجيلي عبد الكريم (دت)، الإنسان الكامل، ج1 ص99.

[36] عبد الوهاب الشعراني(1408 هـ)، الطبقات الكبرى، ج2، بيروت، دار الجيل ص51.

[37] الجيلي عبد الكريم (دت)، الكهف والرقيم في شرح بسم اللّه الرحمان الرحيم – تح: بدوي طه علاّم ، القاهرة مصر، دار الرسالة،ص20.

[38] ابن عربي – فصوص الحكم – تح: القشافي . ص88.

[39] الكتافي محمد(1321هـ)–حلّ الطلاسم من صلاة القاسم، القاهرة ، المطبعة العامة الشرقية، ط1، ص14.

[40] ابن عربي محمد(دت) – فصوص الحكم – تح: أبو العلا عفيفي، بيروت لبنان، دار الكتاب العربي. ج1. ص72.

[41] المرجع نفسه ص210.211.

[42] المرجع نفسه، ص 192.

[43] ينظر : مترجي مكارم صبحي، الإلحاد وآثاره السلبية على المجتمع 2018، https://www.okaz.com.sa/citizen-voice/na/1638119 تم التصفح بتاريخ: 2023/04/04 في الساعة 12زوالا.